إدارة الرسول صلى الله عليه وسلم للصراع في شبه الجزيرة العربية ونتائجه الاستراتيجية

● لواء أ. ح. محمد جمال الدين محفوظ ●

عبرة التاريخ :

● لقد أصبح من الحقائق التاريخية التي لا تُنازع أن الأمم التي تتقاعس عن بناء قوتها، والاستعداد لدفع العدوان عنها، تقع فريسة لأمة أقوى منها، وتستباح حرماتها، وتغتصب حقوقها، وتسلب مواردها، ولا يكون لها وزن ولا قيمة في المحيط الدولي.

● وليس من شك في أن التحديات الجسام التي تواجهها أمتنا الإسلامية تشكل أخطر تهديد يمكن أن تواجهه أمة، وتضعها أمام موقف تاريخي حاسم ينبغي أن تتخذ منه منطلقاً لإبراز كل ما لديها من الملكات الإنسانية والذخائر المادية والحضارية، وهي واعية كل الوعي لكل ما يهدد أمنها وسلامتها من أخطار، وحريصة كل الحرص على بناء قوتها وقدرتها على هزيمة الخطر الذي يتهددها حتى تخطو إلى عزتها وتشق طريقها إلى نهضة حضارية، تعيدها إلى سابق عهدها، أمة قوية مرهوبة الجانب ورائدة للحضارة الإنسانية، وتبوئها مكانتها اللائقة بها بين الأمم.

● من أجل ذلك ينبغي أن تفتح الأمة الإسلامية صفحات تاريخها الحافلة بالدروس النافعة ونخص بالذكر تاريخ عصر النبوة لكي تتأمل في منهج الرسول ﷺ في إدارته للصراع مع أعدائه والنتائج الاستراتيجية التي حققها ثم تستخلص منها الدروس والعبر، فالله تعالى يقول :

﴿ وكلاً نقُصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين ﴾ (هود ١٢٠) .

- **وسوف نحاول في هذا البحث عرض عناصر المنهج الذي اتبعه الرسول ﷺ في إدارته للصراع مع أعدائه .**

أولاً : دراسة أحوال العدو

- إن معرفة العدو ودراسة أحواله ضرورة حيوية لأمن المسلمين والدفاع عنهم ، وهو ما يتضح من « الربط الوثيق » بين الأمر بإعداد القوة والمرابطة وبين التعريف بالأعداء في قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ (الأنفال ٦٠) . ففي هذه الآية تعريف للمسلمين بأعدائهم الظاهرين وأعدائهم الخفيين الذين عليهم أن يعدوا لهم من القوة والمرابطة ما يوقع الرهبة في قلوبهم ، وأول مقتضيات هذا الإعداد ؛ دراسة الأعداء واستطلاع أحوالهم ، لأن على أساس هذه الدراسة يتم بناء القوة الكفيلة بتحقيق الهدف الذي حدده الإسلام ...

من أجل ذلك كانت للرسول ﷺ عيون وأرصاد داخل شبه الجزيرة وخارجها يحصلون على المعلومات عن نوايا الأعداء وحركاتهم ويحققون له الإنذار المبكر بتدابيرهم وتجهيزهم للعدوان على المسلمين .

(١) ففي المدينة : كانت له عيون وأرصاد يطلعونه على كل صغيرة وكبيرة تضر بالمصلحة العامة للمسلمين في السلم والحرب على حد سواء ، فاختار مثلاً حذيفة بن اليمان العبسي ليأتيه بأخبار المنافقين ونواياهم .

(٢) وفي مكة : كان عمه العباس وبشير بن سفيان العتكي ، وكانت أيضا قبيلة خزاعة ، قال الزُهْري : « وكانت خزاعة عَيْبَة نُصح رسول الله ﷺ (أي خاصته وأصحاب سره) مسلمها ومشركها ، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة » .(١)

(٣) وفي القبائل العربية الأخرى : كانت له عيون ، ومنها مثلاً عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي في قبيلة هوازن يوم حنين .

(٤) أما خارج شبه الجزيرة فكانت له عيون وأرصاد في بلاد فارس والروم .

- وعني الرسول ﷺ بأن يتعلم المسلمون لغة العدو ، ومن ذلك أنه أمر زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود ، يقول زيد : « أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب اليهود بالسريانية وقال : إني والله ما آمن يهود على كتابي ، ثم يقول زيد : فوالله ما مرَّ بي نصف شهر حتى تعلمته وجُدْت فيه فكنت أكتب له إليهم ، وأقرأ له كتبهم إليه » (رواه البخاري) وصدق من قال : « من تعلم لغة قوم أمن شرهم » .

- وفي الوقت الذي كان فيه الرسول ﷺ معنياً بالحصول على كافة المعلومات عن الأعداء ، فقد كان حريصاً على حرمان أولئك الأعداء من الحصول على معلومات عن المسلمين ونواياهم وحركاتهم .

- ومن أمثلة نشاط رجال الاستخبارات أن الرسول ﷺ كان على علم بخروج قريش لقتاله في أحد وفي الخندق عن طريق عمه العباس ، ولعل أبلغ دليل على أن الإنذار كان يأتيه مبكراً جداً هو أن المسلمين تمكنوا من حفر الخندق وهو عمل يستغرق حوالي عشرين يوماً « قبل أن تصل قريش التي « فوجئت » به فقال قائلهم : « والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها » وهذه الواقعة لا تدل على كفاءة أرصاد النبي ﷺ فحسب ، بل تدل ـ في الوقت نفسه ـ على عجز قريش عن الحصول على المعلومات عن نظام الدفاع عن المدينة بحفر الخندق بدليل مفاجأتها به ، كما تدل على نجاح المسلمين في كتمان أسرارهم وأسرار خططهم وحرمان العدو من كشفها .

- ثم إن هذه العيون والأرصاد بنجاحها في تحقيق الإنذار المبكر مكنت المسلمين من « إجهاض تدابير أعدائهم لمهاجمة المدينة » كما سيأتي بيانه .

ثانيا : إقامة جبهة داخلية صلبة

- كان أول ما عمد إليه الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة إقامة جبهة داخلية صلبة :

(١) فعمد إلى ربط المهاجرين ـ الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ـ بالأنصار أهل المدينة الأصليين ، فآخى بينهما بصلة الأخوة ليصبحا فئة واحدة مترابطة وملتحمة وليكون الجميع متعاونين على أسباب العيش ، ويداً واحدة تعمل لهدف واحد .

(٢) وعمد إلى توحيد صف الأنصار أنفسهم حيث إنهم كانوا أوساً وخزرجاً ، وكانت بين الفئتين خلافات مستمرة وعداوات سابقة ، فأراد الرسول ﷺ ـ وقد جمع بينهم الإسلام ـ أن يشكلوا قوة واحدة متضامنة ، وأن يقضي على كل شبهة قد تثير العداوة القديمة بينهم .

(٣) وعقد معاهدة بين المسلمين من جهة ، وبين اليهود والمشركين من أهل المدينة من جهة أخرى كانت نتائجها من الناحية العسكرية قيادة الرسول ﷺ لكافة سكان المدينة مسلمين ومشركين ويهود ، وتعاون أهلها جميعاً في رد كل اعتداء يقع عليها من الخارج وأنه في حالة الحرب لرد العدوان عن المدينة : تتولى كل طائفة الإنفاق على نفسها .

● بهذا العمل السياسي والاستراتيجي البارع ، حقق الرسول ﷺ وحدة المدينة وتماسك الجبهة الداخلية ، وجعل أهلها جميعاً على اختلاف دينهم يداً واحدة على أعدائهم كما وضع لمجتمع المدينة نظامه الاجتماعي والاقتصادي والعسكري ، وقد حرص عليه الصلاة والسلام على التصدي لمحاولات تفتيت هذه الجبهة الداخلية من جانب اليهود والمنافقين مثل أساليب التشكيك والتخذيل وإشاعة البلبلة ، وأساليب التفرقة والقضاء على وحدة الأمة كمحاولة اليهود الوقيعة بين الأوس والخزرج .

● وأصبحت المدينة « قاعدة الإسلام الوطيدة » ـ كما يقول رجال الاستراتيجية ـ التي تنطلق منها القوات للدفاع عن الإسلام ، وقد سجل التاريخ صلابة هذه القاعدة وقدرتها الفائقة على الصمود في مواجهة مختلف الأخطار والتحديات :

(١) فقد بلغ عدد العمليات العسكرية في عهد النبي ﷺ قرابة السبعين ما بين غزوات وسرايا في خلال سبع سنوات فقط .

(٢) وحاربت القاعدة أكثر من عدو في أكثر من جهة ، فواجهت المشركين واليهود والروم ، وتعرضت للغزو المباشر ، وتعرضت للغزو من داخلها بينما كان أبناؤها يحاربون العدو خارجها ، وكان التفوق في العدد والعدة في جانب الأعداء .

(٣) لكنها ـ مع كل ذلك ـ بقيت قاعدة وطيدة صلبة ـ حتى تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة ، وأمِنَ الرسول ﷺ كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعة ويعلنون الإسلام .

ثالثاً : تطبيق استراتيجية الردع

● تتمثل استراتيجية الردع الإسلامية في قول الله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ (الأنفال ٦٠) وقول الرسول ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » (رواه البخاري عن جابر) .

● فالهدف من إعداد القوة والمرابطة هو إيقاع الرهبة في قلوب الأعداء وإخافتهم من عاقبة عدوانهم ، ويفهم من الحديث « نصرت بالرعب .. » أن الأعداء كانوا يرهبونه عليه الصلاة والسلام ويخافونه مع بعدهم عنه بحيث لو أراد حربهم لقطع المسافة التي هي بينه وبينهم في شهر بسير الابل ، كما يفهم أيضاً أن إظهار القوة للأعداء وإخافتهم يحقق النصر عليهم .

● وتدل إحصائيات معارك عصر النبوة على تطبيق نظرية الردع عملياً ، فالرسول ﷺ قاد بنفسه ثمان وعشرين غزوة ، حققت تسع عشرة غزوة منها أهدافها بغير قتال حيث آثر الأعداء ألا يواجهوا قوة المسلمين في أغلبها ، ولم ينشب القتال إلا في تسع غزوات فقط هي (بدر وأحد والخندق وبني قريظة وبني المصطلق وخيبر وفتح مكة ، وحنين والطائف) ويلاحظ أننا ذكرنا غزوة الفتح رغم أن القتال الذي وقع فيها لا يكاد يذكر .

صور الردع الإسلامي :

● ويستخلص من سنة الرسول ﷺ في إدارته للصراع مع أعدائه أن هناك أربع صور للردع هي كما يلي :

الصورة الأولى : الردع بإظهار القوة

● وقد تمثلت هذه الصورة في عدة غزوات وسرايا مثل (سرية حمزة في رمضان سنة ١ هـ ـ سرية عبيدة بن الحارث في شوال سنة ١ هـ ـ سرية سعد بن أبي وقاص في ذي القعدة سنة ١ هـ ـ غزوة ودان في صفر سنة ٢ هـ ـ غزوة بواط في ربيع الأول سنة ٢ هـ ـ غزوة ذي العشيرة في جمادى الأولى سنة ٢ هـ ـ غزوة بدر الأولى في جمادى الآخرة سنة ٢ هـ) .

● هذه العمليات بدأت بعد ثمانية أشهر فقط من مقام الرسول ﷺ والمهاجرين بالمدينة ،

ويلاحظ أنها وقعت بتركيز شديد في معدلها الزمني (سبع عمليات في عشرة أشهر) ، وأن الرسول ﷺ حرص على أن يتولى بنفسه قيادة أكبر عدد منها ، وأن معظمها كان بعيد المدى (من ١٥٠ إلى ٢٠٠ كيلومتر تقريباً) على طريق التجارة إلى الشام على ساحل البحر ، وأنه لم يقع فيها قتال بالمعنى المفهوم .

- وقد حققت هذه العمليات عدة أهداف من بينها إيقاع الرهبة في قلب قريش بإشعارها بأن المسلمين « قادرون » على الإيقاع بتجارتها وإيصاد طريقها في وجهها وقد عبر عن ذلك قول صفوان بن أمية : « إن محمداً وأصحابه قد عوَّروا علينا متجرنا .. فما ندري أين نسلك ؟ » .

- ثم يضاف إلى هذه العمليات غزوة فتح مكة وهي أكبر عملية طبقت فيها نظرية الردع عن طريق إظهار القوة إلى الحد الذي جَرَّد قريشاً كما جرد زعيمها أبا سفيان من إرادة القتال فدعاها إلى الاستسلام بقوله : « يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به .. » .

الصورة الثانية : الردع بإجهاض تدابير العدوان

- وقد تمثلت هذه الصورة في سبع غزوات هي (بني سليم – ذي أَمَرَّ – بحران – ذات الرقاع – دُومة الجندل – بني المصطلق – بني الحيان) (انظر الجدول) .

- ويكشف التحليل العام لهذه الغزوات عما يلي :

(١) كان سببها أن الرسول ﷺ بلغه أن تلك القبائل تتجمع بهدف العدوان على المدينة .

(٢) خرج الرسول ﷺ – على الفور – إلى مواضع القبائل لمهاجمتهم في عقر دارهم .

(٣) كانت القبائل عند شعورها بحركة المسلمين ، تفر تاركة أموالها وديارها .

(٤) كان المسلمون لا يعودون مباشرة إلى المدينة ، بل كانوا يبقون في ديار تلك القبائل الهاربة مدداً تراوحت بين بضعة أيام إلى شهرين لتحقيق الردع .

(٥) كانت النتيجة النهائية « إجهاض تدابير العدوان » وردع المُدَبِّرين لها حتى لا يعودوا إلى التفكير في العدوان مرة أخرى .

- وهذه الصورة تؤكد أن الإسلام لا يقف مكتوف الأيدي أمام تدابير العدوان ، بل يتحرك فوراً للقضاء عليها في مهدها ، وبذلك يحرم العدو من مزية المفاجأة ، ومن المبادأة أو حرية

العمل ، لأننا « نسبقه » في التصرف والحركة إليه ، ولا ننتظر حتى يتصرف هو ويتحرك إلينا ، وبذلك تصبح كل أعماله بمثابة « رد فعل » لما نقوم به .

● ثم إن حرص الرسول ﷺ على « أن يتولى بنفسه » قيادة هذه العمليات كلها يؤكد ما لها من شأن كبير وخطير في تقدير الإسلام وأن المبادرة بالقضاء على العدوان في مهده ، ضرورة حيوية لأمن المسلمين والدفاع عنهم .

● ويكشف نجاح عمليات إجهاض تدابير العدوان عن عدة مقومات كان المسلمون يملكونها وأهمها ما يلي :

(١) الإنذار المبكر بنوايا الأعداء مما يدل على يقظة وكفاءة العيون والأرصاد كما ذكرنا .

(٢) امتلاك « القدرات الهجومية » ، فالمسلمون في هذه العمليات « خرجوا » من قاعدتهم بالمدينة ، « وساروا » إلى مواضع أعدائهم « لتوجيه ضربتهم » إليهم ، ولولا ذلك لما استطاعوا إجهاض تدابيرهم للعدوان ، وهنا لا بد أن نصحح ما في بعض الأذهان من فهم معنى « الهجوم » على أنه مرادف للعدوان أو ينطوي على نواياه ، فالهجوم « علمياً » هو حركة نحو العدو لتوجيه الضربة إليه ، وظروف المعارك قد تدعو إلى القيام بالهجوم حتى في إطار العمليات الدفاعية . ثم إن « إيقاع الرهبة » في قلوب الأعداء الذي هو الهدف من إعداد القوة في الإسلام لا يتحقق إلا إذا أدركوا أن لدينا القدرة على التحرك إليهم وضربهم لرد عدوانهم أو القضاء على تدابيرهم في مهدها ، والمدهش أن ما قرره الإسلام منذ أربعة عشر قرنا يقترب منه ما أجمع عليه رجال الاستراتيجية الحربية في عصرنا حين يقولون : « إن العقيدة العسكرية ذات الطابع الدفاعي البحت لن تكون لها إلا قيمة ضعيفة في الردع ، إلا إذا توفرت لديها القدرة الهجومية ، لأن مفتاح الردع هو القدرة على التهديد »(٢)

وتظهر القدرة الهجومية وآثارها في قول الله تعالى : ﴿ والعاديات ضبحا * فالموريات قدحا * فالمغيرات صبحا * فأثرن به نقعا * فوسطن به جمعا ﴾ (العاديات ١ – ٥) ففي هذه الآيات يقسم الله تعالى بخيل الجهاد المسرعات التي يسمع لأنفاسها صوت هو « الضبح » من شدة الجري ، وتطاير الشرر من تحت حوافرها من شدة قدحها للأرض الحجرية والتي يهجم بها فرسانها على العدو في وقت الصباح ليأخذوه على غرة ، والتي يكون من شدة جريها أنها تثير غبار الطرق في وقت الصباح فتدخل وسط جمع الأعداء فتشتته .

الصورة الثالثة : الردع بالقتال :

- إذا لم يتخل العدو عن التفكير في العدوان ، وركب رأسه واعتدى ، فإن المسلمين يقاتلون « مدفوعين بفكرة الإرهاب » أيضاً ، وذلك بأن تكون ضربتهم التي يوجهونها إليه على النحو الذي يردعه ويرهبه ويمنعه من التفكير في العدوان مرة أخرى . وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (التوبة ١٢٣) وقوله سبحانه : ﴿ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا ﴾ (النساء ٩١) .

- ففي غزوة بدر مثلاً استطاع الرسول ﷺ إحداث خلل كبير في « التوازن النفسي » لقريش ، فقد حرص « منذ اللحظة الأولى » على اختيار أفضل المبارزين من أصحابه لمواجهة مبارزي قريش فصرعوهم جميعاً(٣) ، ونظم جيشه ووجهه للقتال مادياً ومعنوياً حتى كتب الله له النصر بأقل الخسائر على عدوه المتفوق الذي فقد من رجاله سبعين قتيلاً ، وسبعين أسيراً ، قال ابن اسحق : « ناحت قريش على قتلاهم ثم قالوا : لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنسوا بهم (أي تؤخروا فداءهم) لا يأرب (أي لا يشتد) عليكم محمد وأصحابه في الفداء »(٤) .

الصورة الرابعة : ردع الأعداء الأخفياء :

- ومن أمثلة هذه الصورة إحراق مسجد الضِّرار ، فقد بنى جماعة من المنافقين بذي أوان (وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار) مسجداً كانوا يحاولون فيه أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضراراً وكفراً ، فلما عرف الرسول ﷺ أمر هذا المسجد وحقيقة ما قُصد به من إقامته أمر بهدمه وتحريقه .(٥)

رابعاً : انتزاع المبادأة من أيدي الأعداء :

- إن من يملك المبادأة في الحرب يملك حرية التصرف ويحصر خصمه في نطاق رد الفعل لما يفعل وذلك من أكبر ما يساعد على التغلب عليه .
- وفي الصراع بين المسلمين والمشركين في عصر النبوة كان المشركون في البداية يملكون المبادأة ، فطوال الفترة التي قضاها المسلمون في المدينة من يوم الهجرة إلى ما قبل غزوة الخندق

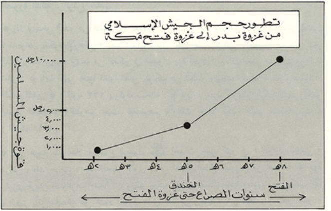

كانوا يتلقون هجمات أعدائهم ويواجهونهم « بمعارك دفاعية » كان أبرزها غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة ، وغزوة أحد في السنة الثالثة ثم كانت غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة التي واجه فيها المسلمون قريشاً والقبائل العربية واليهود .

- لكن الرسول ﷺ بعد غزوة الخندق وجد الفرصة سانحة « لانتزاع » المبادأة من أيدي أعدائه ، فكان ذلك نقطة تحول بارزة في الصراع ، فقد روى الإمام أحمد والبخاري عن سليمان بن صُرَد ، والبزار برجال ثقات ، وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم ، والبيهقي عن قتادة رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال حين أجلى الله تعالى عنه الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »(٦)

- إن معنى هذا القرار الخطير أن « يتحول » المسلمون من الدفاع إلى الهجوم ، وأن يسيروا إلى أعدائهم بدلاً من البقاء انتظاراً لضرباتهم ، وبعبارة أخرى أن يتحول المسلمون من حالة « رد الفعل » إلى « الفعل » ، وقد حافظ المسلمون على هذه « المبادأة » التي انتزعوها حتى تم فتح مكة في رمضان عام ٨ هـ وارتفع لواء الإسلام فوق شبه الجزيرة .

- ومن المفيد أن ندرس ظروف وأسباب هذا القرار الخطير :

(١) فلقد فشلت قريش ـ رغم امتلاكها للمبادأة ـ في تحقيق هذا الأساس وهو القضاء على الإسلام أو القضاء على المسلمين في موطنهم الجديد بالمدينة.

(٢) وحتى في تلك الغزوة الأخيرة (الخندق) التي أرادت لها أن تكون « فاصلة » فحشدت لها « كل ما أمكنها حشده » من قوى أخرى إلى جانب قوتها متمثلة في القبائل العربية واليهود ، باءت بالفشل .

(٣) والذي يُتصور هو أن قريشاً ـ إزاء هذا الفشل ـ سوف تضعف عزيمتها ويفتر استعدادها للعودة إلى التجربة مرة أخرى .

(٤) وهنا تظهر عبقرية الرسول ﷺ في فهمه لطبائع البشر ، وفراسته في « رصد ملامح الضعف في خصمه » ، وسرعته الفائقة في اتخاذ القرار الصحيح في الوقت الملائم تماماً لتوجيه « الضربة القاضية » : « الآن نغزوهم ، ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » .

خامساً : الضغط الاقتصادي على العدو

● قام المسلمون بعدة عمليات استهدفت تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام كما ذكرنا ، فنجحوا في فرض نوع من الحصار الاقتصادي حتى قال صفوان بن أمية : « إن محمداً وأصحابه قد عوَّروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ، وإن أقمنا في دارنا هذه ، أكلنا رؤوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء » .

● فأشار عليه الأسود بن عبد المطلب أن يتخذ طريق العراق ، ففعل ، وتجهز من البضائع والفضة بما قيمته مائة ألف درهم ، غير أن الرسول ﷺ بعث زيد بن حارثة في مائة راكب فاستولى على القافلة وهي في طريقها عند ماء يقال له (القَرَدة) من مياه نجد .

● وهكذا بهذا الأسلوب في الضغط الاقتصادي لم يعد أمام قريش إلا التجارة مع الحبشة ، وكان لذلك أسوأ الأثر على حياتها الاقتصادية .

سادساً : تجريد العدو من الحلفاء

● ليس من شك في أن تجريد العدو من الحلفاء يحرمه من قُوَى كان يمكن أن تسانده وتقوي

عزيمته ، وقد فعل الرسول ﷺ ذلك مع قريش فكان لذلك أثر كبير في إقناعها بتغيير موقفها من المسلمين ثم الاستسلام في النهاية :

(١) فقد عقد الرسول ﷺ اتفاقات مع مختلف القبائل العربية المجاورة مثل بني ضمرة (في غزوة ودان) وبني مدلج وحلفائهم (في غزوة ذات العشيرة) وقد كان من نتائج تلك الاتفاقات ما يلي :

- كفالة حرية المسلمين في نشر الدعوة مما يشكل تهديداً لحاضر المشركين ومستقبلهم .
- كفالة حسن الجوار والمعاملة .

- حرمان قريش من محالفة هذه القبائل والحصول على معاونتها سواء بتأمين طريق التجارة ، أو بشد أزرها بالعدوان على المسلمين بالمدينة أو تهديد طرق مواصلاتهم أو تحركاتهم .

- « تحييد » القبائل التي بينها وبين قريش موادعة ومن أمثلة ذلك ما حدث في سرية حمزة في رمضان سنة ١ هـ ، فقد كان مجدي بن عمرو الجهني موادعاً لقريش وللمسلمين ، فحجز بين الطرفين ومنع نشوب القتال بينهما ، فيكون بذلك قد اتخذ موقف الحياد ولم يناصر طرفاً منهما على طرف ، ولو لم يكن المسلمون قد وادعوه من قبل ، فربما ناصر قريشاً على المسلمين .

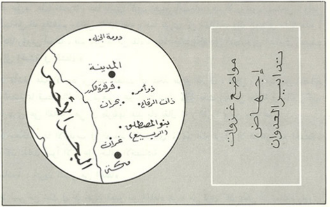
دومة الجندل
المدينة
قرقرة الكدر
ذو أمر
بحران
ذات الرقاع
بنو المصطلق
(المريسيع)
غزان
مكة
البحر الأحمر

مواضع غزوات
إجهاض
تدابير العدوان

ـ حرمان قريش من « حرية العمل » وذلك « بتضييق المساحة » التي تستطيع التحرك فيها للعمل ضد المسلمين .

ـ وحرمانها أيضا من « القواعد الخارجية » التي تسمح لها بأن تقوم بعدوان غير مباشر ضد المسلمين .

(٢) وبالقضاء على اليهود عسكرياً في شبه الجزيرة بعد إجلاء بني قينقاع وبني النضير والقضاء على بني قريظة وبعد غزوة خيبر ، جرد المسلمون قريشاً من حليف كان يشجعها ويشد أزرها ويحرضها على قتالهم .

(٣) ثم إن انتشار الإسلام في قريش نفسها وفي القبائل العربية الأخرى أضعف من موقفها في مواجهة المسلمين وجعل من الصعب بل من المستحيل أن تتوحد كلمتها لقتالهم .

سابعاً : استغلال فترات الهدنة والسلام

● كان لصلح الحديبية الذي عقد بين المسلمين وقريش في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة آثار استراتيجية لصالح الدعوة في حاضرها ومستقبلها ولتقوية مركز المسلمين في صراعهم مع أعدائهم :

(١) فقد أصبحت المنطقة التي تقع جنوب المدينة « منطقة أمينة » بالنسبة للمسلمين بعد أن كانت قبل ذلك مصدر الخطر الأكبر الذي يهدد الدعوة ويهدد المسلمين .

(١) وانحصر الخطر في المنطقة الشمالية التي تضم خصمين هما اليهود في خيبر وما حولها ، والأعراب شمال المدينة ، الأمر الذي يمكن المسلمين من القضاء على هذين الخصمين ، ليصبحوا بعد ذلك متفرغين للتحول ـ في الوقت المناسب ـ نحو الخصم الأكبر : قريش ، وإلى هدفهم الرئيسي : مكة المكرمة .

(٣) وانفتح المجال للرسول ﷺ لعقد محالفات مع القبائل التي أصبحت لا تتهيب الانضمام إلى المسلمين مادامت قريش قد التزمت بتأمين من يدخلون في حماية الرسول ﷺ وحلفه ، وخير دليل على ذلك إعلان خزاعة حلفها للرسول ﷺ قبل أن يجف مداد العهد ، قال الزُّهْري : « فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عهد محمد وعهده »(٧)

(٤) وكسب المسلمون عطف كثير من القبائل وكثير من قريش نفسها وكثير من أهل المنطقة المجاورة لقريش بسبب صد قريش المسلمين عن زيارة البيت الحرام وتعظيمه وهو الهدف الذي

خرج الرسول ﷺ من المدينة من أجله ، وقد كان لهذا التعاطف أثره في تيسير عملية فتح مكة على المسلمين فيما بعد .

(٥) وفي ظل مناخ الهدنة المستقر زادت قوة جيش المسلمين ، فبعد أن كانت في غزوة الخندق (عام ٥ هـ) ثلاثة آلاف مقاتل ، وصلت إلى عشرة آلاف عند فتح مكة (عام ٨ هـ) ثم قفزت بعد الفتح إلى ثلاثين ألفاً في غزوة تبوك (عام ٩ هـ) (انظر اللوحة) .

(٦) وبعد الحديبية بشهرين بدأ الرسول ﷺ مخاطبة الملوك ورؤساء الدول الأجنبية يدعوهم إلى الإسلام : هرقل وكسرى والمقوقس وملك الحيرة وملك اليمن ونجاشي الحبشة .

ثامناً : تطوير وتدعيم القوة الإسلامية:

- في فترة وجيزة لا تتجاوز سبع سنوات تطور جيش الإسلام بقيادة الرسول ﷺ حتى لحق بمقتضيات عصره :

(١) القوة الضاربة من الفرسان :

فقد زادت قوة الفرسان في التركيب التنظيمي لجيش الإسلام حتى بلغت ثلث قوته ، وذلك خلال زمن قصير نسبياً ، فبعد أن كانت في أول معركة وهي بدر لا تكاد تذكر (فرسان اثنان) قفزت إلى عشرة آلاف فارس في جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل في آخر معركة وهي تبوك ، والباحث المدقق يلاحظ أن جيش الإسلام قد لحق في هذا المجال بالعسكرية الفارسية والعسكرية البيزنطية ، إذ كانت كل منهما تقيم التركيب التنظيمي لجيشها على أساس تشكيل القوة الضاربة الرئيسية من الفرسان .(٨)

(٢) ارتفاع مستوى الكفاءة القتالية :

كان مستوى المسلمين من الرمي في بادئ الأمر أقل من مستوى الفرس الذين وصفهم الرسول ﷺ لأصحابه بقوله : « هم أكثر منكم رمية » ، فبلغ اهتمامه بتدريبهم على الرمي إلى حد أنه جعله « أساس القوة وجوهرها » ، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر يوماً ، فقرأ قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ثم قال : « ألا إن القوة الرمي ، إن القوة الرمي » (رواه مسلم) وكان عليه الصلاة والسلام يكرم الرماة المهرة من أصحابه ، يقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « ما جمع رسول

الله ﷺ أبويه لأحد غير سعد بن مالك (هو سعد بن أبي وقاص) ، فإنه جعل يقول له يوم أحد : ارم فداك أبي وأمي » (رواه الشيخان والترمذي) .

وكان عليه الصلاة والسلام يحذر من الانقطاع عن التدريب على الرمي حتى لا ينخفض مستواهم فيه إلى حد أنه اعتبر ذلك من المعاصي أو جحود النعمة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من ترك الرمي بعد ما علمه فإنما هي نعمة جحدها » (رواه أبو داود وغيره) وقال : « من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو فقد عصى » (رواه أحمد ومسلم) .

وقد برع المسلمون في الرمي نتيجة لهذه العناية الفائقة بتدريبهم عليه حتى استحقوا أن يطلق عليهم « رماة الحدق » أي أن الرامي منهم كان إذا صوب سهمه نحو عين عدوه لم يخطئها .

(٣) دعم تسليح الجيش بأسلحة جديدة .

وأضاف المسلمون إلى أسلحتهم أسلحة جديدة لم تكن لديهم من قبل وهي أسلحة الحصار ودك الحصون والأسوار وهي المجانيق والدبابات ، قال ابن هشام : « ولم يشهد حنيناً ولا حصار الطائف عُروة بن مسعود ولا غَيْلان بن سلمة ، كانا بجَرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضُّبُّور »(٩)

(٤) شهادة القادة البيزنطيين.

وقد اعترف للمسلمين بملاحقتهم لعصرهم في هذه المجالات الامبراطور البيزنطي « ليو » ، فقد نقل عنه فون كريمر قوله : « إن الجندي العربي ما كان يفترق عن الجندي البيزنطي في المؤن والسلاح » كما قال عنهم : « إن العرب أمهر الشعوب الأجنبية وأبرعها على الإطلاق في العمليات الحربية » .

النتائج الاستراتيجية لإدارة الصراع .

وقد كانت النتائج الاستراتيجية لجهاد المسلمين في عصر النبوة نتائج بعيدة المدى أصبحت من الحقائق التاريخية نذكر منها ما يلي :

١ ـ تأمين الدعوة وقيام الدولة الإسلامية :

- فقريش العدو الرئيس ، أقبلت على الإسلام بعد أن ظلت عشرين عاماً تصد عن سبيل الله بكل أساليب الضغط والإيذاء والحرب .

● والمستضعفون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، عادوا إلى بلدهم تحت أعلام الإسلام والسلام .

● وأتم الرسول ﷺ ـ في أول يوم لفتح مكة ـ ما دعا إليه منذ عشرين عاماً وما حاربته قريش أشد الحرب فيه ، أتم تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية في البيت الحرام .

● وتمت كلمة ربك في شبه الجزيرة العربية ، وتوفر الأمن والاستقرار للدولة الإسلامية لأداء رسالتها السامية لخير البشرية .

٢ ـ تحويل اتجاهات الأعداء نحو الإسلام :

● لقد برز خلال الصراع أمر بالغ الأهمية ينفرد به الإسلام ولا نظير له في الصراعات عبر العصور بسبب ما يتصف به من سماحة وعدل ، فالصراع بين المسلمين وأعدائهم لم ينته باستسلام الأعداء فحسب ، بل أنه كان ينتهي بتحول الأعداء وتحول اتجاهاتهم من العداء للإسلام إلى الدخول فيه والحرص عليه ، بل ـ وأكثر من ذلك ــ إلى رفع راية الجهاد في سبيل الله .

● وقد ظهر هذا الأمر واضحاً في موقف قريش والقبائل العربية الأخرى بعد الفتح ، ثم ظهر واضحاً أيضاً بعد عصر النبوة في الفتوحات الإسلامية حتى أن المشير مونتجمري في كتابه (الحرب عبر التاريخ) تنبه إلى هذه الظاهرة وأبدى دهشة منها فقال : « من العجيب أن القوة الرئيسية للجيوش الإسلامية في فتح أسبانيا كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين ! »

٣ ـ استعداد المسلمين لمواجهة الفرس والروم :

فالرسول ﷺ لم يلق ربه إلا وكان جيش الإسلام مُعَدًّا لمواجهة القوتين العظميين في عصره وهما فارس والروم ، وقد وقعت هذه المواجهة على الفور ومنذ عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

الإسلام دين قوة وسلام :

● وبعد .. فإن الإسلام رسالة الخير والحق والمحبة والسلام ، قد ارتضاه الله ديناً لتوجيه الناس إلى أقوم السبل ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ، ليصلوا منه إلى سعادتي الدنيا والآخرة ، والسلام في مبادئ الإسلام أصل في عقيدته ، وتحتل فكرته المقام الرئيسي بين أهداف الإسلام ومقاصده العامة .

غـزوات إجهـاض تدابير العـدد للعـدوان

رقم مسلسل	اسم الغزة	التاريخ	المكان	الأعداء	قوة المسلمين	النتائج
١	بني سُليم	شوال عام ٢ هـ	قَرْقَرة الكُدْر بين المدينة ومكة	بنو سليم وغطفان	٢٠٠	فرار بني سليم وغطفان تاركين أموالهم للمسلمين
٢	ذي أمَرّ	المحرم عام ٣ هـ	ذو أمر موضع في نجد	بنو ثعلبة ومحارب	٤٥٠	فر بنو ثعلبة ومحارب وبقي المسلمون في ديارهم حوالي شهر
٣	بحران	ربيع الأول عام ٣ هـ	بحران على طريق المدينة مكة	بنو سليم	٣٠٠	فر بنو سليم فبقى المسلمون في ديارهم حوالي شهر
٤	ذات الرقاع	شعبان عام ٤ هـ	ذات الرقاع بنجد	بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان	٤٠٠	فرار بني ثعلبة وبني محارب
٥	دُومة الجندل	ربيع الأول عام ٥ هـ	دومة الجندل	قبائل دومة الجندل	١٠٠٠	فرت القبائل
٦	بني المصطلق	شعبان عام ٥ هـ	المريسيع	بنو المصطلق	١٠٠٠	فر بنو المصطلق بعد معركة قصيرة ضد المسلمين
٧	بني لحيان	جمادى الأولى عام ٦ هـ	غُران	بنو لحيان	حوالي ٣٠٠٠	فرار بني لحيان

● لكن الإسلام ـ في الوقت نفسه ـ « دين عملي » يأخذ الحياة من واقعها ، فقد راعى طبائع الخلائق وميلها إلى المشاحنات ، من أجل ذلك اقتضت حكمة الله جل شأنه أن يكون الإسلام « دين قوة أيضاً » ليدافع بها عن نفسه ويرغم أعداءه على أن « يلزموا حدودهم » .

● إنه لا يفوت الباحث المدقق أن ذكر الجنوح للسلم ورد « بعد » الأمر بإعداد القوة والمرابطة في قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ (الأنفال ٦٠ – ٦١) فيفهم من ذلك ما يلي :

(١) لا جنوح للسلم مع ضعف أو قلة ، أي لابد من استمرار وجود « القوة الرادعة » .

(٢)ولا جنوح للسلم مع تهاون أو غفلة ، أي لابد من استمرار وجود « الرباط » .

أي أن الجنوح للسلم في الإسلام يكون مع قوة المسلمين الرادعة ومع يقظتهم التامة ، وأن السلام الذي يدعو إليه الإسلام : سلام تحميه القوة والاستعداد ، لأنهما أقوى ضمان لتحقيق السلام بمعناه ■

الهوامش

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣١٢

(٢) اندريه بوفر : مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية .

(٣) هم عبيدة بن الحارث ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب (ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٦٢٥) .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٦٤٨ .

(٥) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٥٢٩ – ٥٣٠ .

(٦) محمد بن يوسف الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد جـ ٤ ص ٥٤٩ .

(٧) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣١٨ .

(٨) ارنست ديبوي وتريفور ديبوى : دائرة معارف التاريخ الحربي ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .

(٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ ص ٤٧٨ ـ والضبور : نوع من الدبابات ، قال السهيلي : الدبابة آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها . وقال أبو ذر : الدبابات آلات تصنع من خشب وتغشى بجلود ويدخل فيها الرجال ويتصلون بحائط الحصن .